موسيقى

«مهرجان البستان» ينطلق الليلة

لوحة تنظيمية فنية باهرة... وتسعيرة تناسب «كل الناس»

ينطلق «مهرجان البستان» غداً ويختتم في 22 آذار (مارس) المقبل. عنوان الدورة «لودفيغ» (اسم بيتهوفن) وهو متوقّع نظراً للمناسبة العالمية هذا العام، إذ يصادف مرور ربع الفية على ولادة المؤلف الألماني الشهير. منذ انطلاقه، لم يمنح المهرجان الشتوي شرف عنوان دورة برمّتها إلّا لثلاثة مؤلفين: باخ (دورة عام 2018، ذكرى 333 عاماً على ولادته واليوبيل الفضّي للمهرجان)، موزار (دورة عام 2006، ذكرى ربع الفية على ولادة المؤلف النمساوي) واليوم بيتهوفن. هكذا كان، وهكذا يجب أن يكون.

إذاً، عنوان الدورة وتركيزها المطلق على بيتهوفن هو أمر متوقّع وبديهي. لكن المفاجأة تكمن في مكان آخر. بقدر ما كان محورها الفني متوقعاً، كان إغلاؤها متوقعاً أيضاً. ففي الحالات الطبيعية، تركيب برنامج بهذه الدقة والأناقة هو مسألة نظرية، يمكن أن نتمناها أو نضعها على الورق، لكن تنفيذها ليس مكفولاً. فكيف في ظلّ هذه الأحوال التي أدت، منذ ثلاثة أشهر، إلى إلغاء أنشطة ذات إطار تنظيمي أسهل وأصغر بما لا يقاس مع حجم التحديات والتعقيد في برنامج «البستان». إنه أمرٌ مذهل فعلاً. فتخصيص دورة كاملة لبيتهوفن هو عملية دقيقة، يصبح فيها هامش المراوغة في الخيارات والاحتمالات، بين الأعمال والموسيقيين، لتركيب الأمسيات وبرامجها، ضيّقَ جداً. رغم ذلك، نحن أمام لوحة تنظيمية فنية باهرة، تستدعي تحية موضوعية للجنة المنظمة... وتحية ثانية لوضع تسعيرة منخفضة واحدة لجميع الحفلات: 30 ألف ليرة لبنانية فقط!

ما هي مبرّرات هذه «اللوحة»؟ نبدأ من مروحة الأعمال المدرجة في الأمسيات، والأهم، كيفية إدراجها. أولاً، إذا استثنينا العمل الأوبرالي الوحيد الذي كتبه بيتهوفن (بعنوان «فيديليو»)، وهو عمل ذو أهمية ثانوية على أي حال (في فئته وعند بيتهوفن أيضاً)، لا تغيب أي فئة أساسية من ريبرتوار المؤلف الألماني. والأهم، أن بعض الفئات حاضرة بشكل كامل: السمفونيات التسع وكونشرتوهات البيانو الخمسة وكونشرتو الكمان الوحيد (يغيب فقط الكونشرتو الثلاثي في فئة الكونشرتو عموماً)، وسوناتات التشيلو والبيانو الخمس وسوناتات الكمان والبيانو العشر. الفئة المهمة والكبيرة، لكن الممثّلة بجزء صغير هي فئة رباعي الوتريات، إذ تم تخصيص أمسية واحدة لها (3/14)، تسمع فيها ثلاثة رباعيات (من أصل 16). لكنها، من جهة ثانية مطروحة في إطار مميّز، هو الظلام (عنوانها Beethoven in the Dark أي بيتهوفن في الظلام)، إذ سيقدّم «رباعي ساكوني» (مجموعة مغمورة، توقّعنا اسماً أبرز في هذا الإطار) برنامجه من دون أنوار، وهو أمرٌ مناسب، لا بل مفيد للسمع، في هذا النوع من الأعمال. من جهة ثانية، أكبر ثغرة لا تغتفر في الدورة هي التهميش شبه الكلّي لأهم فئة في ريبرتوار بيتهوفن، وهي «العهد الجديد للبيانو»، أي سوناتات البيانو المنفرد الـ32. كان يجب إدراج ثلاث أمسيات على الأقل، لتستوعب 10 إلى 12 من التحف الكبيرة في هذه الفئة، بالحد الأدنى. كلّ ما يخص هذا الجانب هو أمسية هجينة، يحلّ فيها عبد الرحمن الباشا (وهو ممتاز، لكن كم مرة سمعناه في لبنان في السنوات الأخيرة؟ من حقّنا أن لا نتحمّس) صاحب التسجيلين الكاملين لهذا العمل (الأول صدر على مراحل بين 1984 و1993 والثاني صدر عام 2013)، ولكن برفقة نصوص بعنوان «اعترافات بيتهوفن» كتبها الكسندر نجّار. مقابل كلّ نص لنجّار، سوناتة ملائمة

> لا تغيب أي فئة أساسية من ريبرتوار المؤلف الألماني عن برنامج المهرجان

يؤدّيها الباشا، كما فهمنا من تعريف الأمسية. فعلاً إنها خسارة كبيرة ألّا يزيّن الدورة اسم كبير (أو نجم صاعد، وما أكثرهم) في مجال أداء سوناتات بيتهوفن العظيمة. وإذا أردنا التدقيق أكثر في السياق ذاته، تغيب فئة الثلاثيات (بيانو/كمان/تشيلو وثلاثيات الوتريات)، التي كان بالإمكان اقتصار حضورها على أهم عملين فيها، أي اللذان يحملان العنوانين التاليين: «الأرشيدوق» و«الأرواح». أمّا المهارة العالية في تركيب البرنامج، فتكمن في لعبة الأرقام بين فئتين أساسيّتين عند المؤلف الألماني: السمفونيات التسع وكونشرتوهات البيانو الخمسة. فقد تم تأليف برامج خمس أمسيات من الكونشرتو والسمفونية اللذين يحملان نفس الرقم: مثلاً، السمفونية الأولى والكونشرتو رقم 1، الثانية مع الكونشرتو رقم 2، إلخ... فيما خُجز الافتتاح للثنائي الأهم في هذه اللعبة: السمفونية الخامسة والكونشرتو رقم 5 (الإمبراطور). افتتاح قوي، كلاسيكي صحيح، لكنه ذو رمزية عالية مطلوبة في دورة تحمل اسم «لودفيغ». أما بعد الرقم خمسة (حيث تتواصل السمفونيات من دون مرادف رقمي في كونشرتوهات البيانو)، فتمّ أيضاً جمع السمفونيات رقم 6، 7 و8 مع أعمال مهمة وملائمة. إذ، مع السادسة نسمع «إغمونت» كاملاً (أي المقتطفات الغنائية التي لحنها بيتهوفن لهذه المسرحية، وليس فقط مقدّمتها الشهيرة) ومع السابعة الـ Choral Fantasy (عمل ذو تركيبة فريدة، للبيانو والأوركسترا والكورس) في ختام المهرجان، والثامنة، بطبيعة الحال، مع كونشرتو الكمان الوحيد... والتاسعة؟ نسمعها وحدها، لا شريك لها! وكذلك القدّاس الاحتفالي، وهو أضخم أعمال بيتهوفن الكورالية (الفئة التي لم يهتم بها كثيراً) وأصعبها أداءً وتلقياً.

مهرجان البستان الدولي للموسيقى: بدأ من اليوم 20:30 حتى 22 آذار (مارس) ـ فندق البستان، بيت مري ـ 04/972980

الموسيقيون بين الواقعية والحلم

عندما تُخصَّص الدورة لاسم كبير، مثل باخ أو موزار أو بيتهوفن، يسهل خيار الأسماء المرموقة لدعوتها إلى المهرجان، كما هي الحال السنة، إذ تكثر الأسماء المتخصصة في أحد الثلاثة أو بالثلاثة معاً أحياناً. توقعاتنا «غير الواقعية» كانت كبيرة جداً لهذه الدورة. غير أن الأسماء المشاركة، متوسّطة، أو مهمة ومكرّسة، أو نجوم شابة صاعدة، لا أكثر، ناهيكم بالتكرار الذي يطال أكثر من اسم. بعبارة أخرى، لا قنابل من العيار المتوسط أو الثقيل. هذا أمل تلاشى تدريجاً في السنوات الأخيرة، قبل أن ينعدم نهائياً هذا العام. ونقصد، مثلاً، الأمل في أن يشارك في دورة «بيتهوفن» اسمٌ كريكاردو شايي (قائد أوركسترا) أو زميله الإستوني بافو يارفي أو في أن يتحقق الحلم الذي سمعنا أنه كان مطروحاً على طاولة «البستان»، بدعوة الروسي/ اليوناني الرهيب تيودور كورانتسيس على رأس أوركستراه طبعاً (MusicAeterna). إذ يجول العالم حالياً لتقديم بيتهوفن (ويتحضّر لتسجيل سمفونياته). يمكن إضافة عشرات الأسماء إلى هؤلاء، لكن نذكرهم هنا على سبيل المثال والدلالة عن فئة من القادة العالميين. في هذا السياق، الضيف الوحيد هو الفرنسي الشاب جيريمي روربر، وهو خيار مقبول لا شك، لكن الأسماء الثلاثة الآنفة هي من معدن مختلف. معدن الأساطير. المسألة قد تكون مكلفةً ومعقّدة لوجستياً بالنسبة إلى قادة الأوركسترا، إذا ما اشترط القائد المشاركة إلى جانب الأوركسترا التي يديرها. لكن الفئة الأسهل لوجستياً والأقل كلفةً هي عازفو البيانو، إذ ولّى زمن الأساطير التي لا تسافر إلا مع آلاتها (مثل الراحلين هوروفيتز، غولد، ميكلنجلي،... أو الأحياء، مثل زيمرمان). يكفي، في هذا الزمن، تأمين «شتاينواي» محترم لكي تكتمل التحضيرات لدعوة أكبر، الإيطالية فانيسا بينيلّي موزيل (2/23) وزميلتها غلوريا كامبانر (الافتتاح)، علماً أنهما سبق أن شاركتا في «البستان». هذا في حين كنا ننتظر التركي فازيل ساي أو الأميركي جوناثن بيس أو الروسي/ الألماني إيغور ليفيت، والثلاثي أصدر في الأسابيع الأخيرة نسخته من سوناتات بيتهوفن الكاملة (سجلوها على مراحل ونالت ترحيب النقاد في السنوات الأخيرة)، ما يعني أنهم جاهزون تماماً للمشاركة في هذه الدورة، والأهم، سد ثغرة أمسيات البيانو المنفرد. حتى في فئة رباعي الوتريات، لماذا ليس Artemis أو Belcea أو The Lindsay أو Prazak؟ لكن، نعود إلى الظروف الاستثنائية الصعبة، فيصبح كل نقص مبرّراً، وكل الأسماء مقبولة ومرحّباً بها، بل مشكورة على مشاركتها في حدث يقام على رمال متحرّكة، تحكمها رسومٌ مثلها!

الحفلات الأساسية

الافتتاح مع الرقم 5

فندق البستان ـ هذا المساء

يمكن القول إن كل الحفلات مهمة وأساسية في هذه الدورة. لكن مع ذلك سنختار ستة مواعيد للإضاءة عليها، بدءاً من الافتتاح الذي يضمّ عملَين: الأول هو السمفونية الخامسة، التي قد تكون الأشهر في تاريخ فئتها. تؤدي العمل «الأوركسترا الفلهارمونية اللبنانية» بقيادة الإيطالي جيانلوقا مرتشيانو، قبل أن تنضم إلى المسرح مواطنته غلوريا كامبانر (الصورة) في كونشرتو البيانو رقم 5.

أمسيتا الثنائي «كيت / رونو»

فندق البستان ـ 28 و29/2

قبل عامين، في الدورة التي خصصها «البستان» لمعلّم الألماني باخ، كنا من المفترَض أن يشارك عازف البيانو الأميركي الشاب كيت أرمسترونغ بعدما برز تسجيله المصوّر لـ«تنويعات غولدبرغ»، اعتذر عن عدم المشاركة، لكنه لبى الدعوة هذه المرّة لتقديم سوناتات الكمان والبيانو العشر، مع الفرنسي الغني عن التعريف رونو كابوسون (الصورة)، على مدى ليلتَين متتاليتَين (خمس سوناتات في كل ليلة!).

الثنائي «دوكرو/ غوتييه»

فندق البستان ـ 2/3

يسافر رونو كابوسون بعد تقديم مساهمته القيّمة إلى جانب كيت أرمسترونغ في دورة «بيتهوفن»، ويحط بعده بيومين شقيقه الأصغر غوتيه كابوسون (الصورة)، عازف التشيلو المرموق الذي نسمع أداءه لسوناتات التشيلو الخمس برفقة مواطنه جيروم دوكرو. علماً أن الرجلين سبق أن حضرا إلى «البستان»، وهذه المشاركة الرابعة لغوتييه والثالثة لجيروم.

«الرعوية» و«إغمونت»

فندق البستان ـ 6/3

في سمفونيته السادسة، أراد بيتهوفن محاكاة الطبيعة، من هنا يأتي اسمها: «الرعوية». يتولى قيادتها الفرنسي الشاب جيريمي روربر على رأس «كاميراتا سالزبورغ»، الرجل معروف بريبرتوار الحقبة الكلاسيكية (أعمال أوركسترالية وأوبرا) وبنفسه الأصيل (أي يحترم «الصوت الأصلي» للعمل)، لكن سادسة بيتهوفن ليست بعيدة كثيراً عن هذه الأجواء. في الجزء الثاني من البرنامج، نسمع «إغمونت»، أي الافتتاحية (فائقة الشهرة) والمقاطع الغنائية الملحنة (تؤديها كريستينا غانش) التي وضعها بيتهوفن لمسرحية صديقه الأديب الألماني غوته.

«نشيد الفرح»

كنيسة القديس يوسف / مونو ـ 13/3

مساء الجمعة 13 الشهر المقبل، ورغم دلالاته التشاؤمية في الموروث الشعبي، محجوزٌ للفرح! إنها السمفونية التاسعة والأخيرة لبيتهوفن، وفيها سابقة في تاريخ الكتابة السمفونية تكمن في الغناء المنفرد والكورالي الذي يتخلل حركتها الرابعة، والنص يحمل عنوان «نشيد الفرح» للأديب الألماني شيلر. يقود شيخة السمفونيات جيانلوقا مارتشيانو (على رأس «الفلهارمونية اللبنانية») ويشارك في تنفيذها مغنون/يات أجانب بالإضافة إلى جوقة إيطالية وجوقة «جامعة القديس يوسف».

الختام

22/3

لاختتام الدورة، اختار المنظمون «السابعة». كثيرون يعتبرون هذه السمفونية الأهم في فئتها، وهو أمر غير مستغرب كثيراً! أما العمل الثاني، فهو ذو تركيبة فريدة، ونص جميل (يحتفي بالموسيقى والحياة) ومن يسمعه يدرك أن مشروع السمفونية التاسعة بدأه بيتهوفن مع هذه التجربة الكورالية، التي يلعب فيها البيانو دوراً بارزاً (بالأخص في مطلعها) والضيف هنا هو الأوكراني فيتالي الأنطونية» (بقيادة الأب توفيق معتوق) و«الأوركسترا الأرمنية لموسيقى الحُجرة» (بقيادة مارتشيانو).

إعداد **بشير صفير**

صفّقوا يا عشّاق «لودفيغ»

بيتهوفن... الرجل الذي ركّع القدَر

هذا العام تصادف ذكرى ربع الفية على ولادة المؤلف الألماني بيتهوفن. العالم بأسره يحتفل بالمناسبة، كلٌ على طريقته، وفي لبنان خُصص له «مهرجان البستان» دورة كاملة. بأيّ دافع يمكن للمرء أن يعمل على ملفٍ عن هذا الرجل، اليوم، وفي يومية سياسية، وفي بيروت؟ من يهتمّ، والجوع يلوح في الأفق القريب؟ من يكترث، والغالبية الساحقة جرفتها التفاهة نحو سُلَع فنية من نوع آخر؟ من يقرأ، والعالم يبحث عن علاجات للحدّ من تفشي اضطراب نقص الانتباه وفرط الحركة؟ من أين نشحذ الرغبة في الكتابة؟ يبدو أن الشغف في مشاركة الأشياء الجميلة ونقل المعرفة المفيدة بات شحيحاً، وكذلك الأمل. يبقى لنا المجهول، المجهول هو الذي يدفع إلى فعل الأشياء، طالما أن الضمير المهني والفني تجاه الإنسان والمجتمع متوافر، علينا أن نُنجز هذا الملف ونرميه في المجهول. مَن يقرأ؟ لا نعرف. مَن يكترث لبيتهوفن؟ لا نعرف. مَن يهتم للموسيقى؟ لا نعرف. صحيح أن بيتهوفن فقَد السمع، لكن الصمم أصابنا نحن!

بعد تخطّي هذه العقبة، نصطدم بواحدة أخرى. إن كمّ المعلومات عن بيتهوفن وحياته وأعماله وتاريخه الذي يبدأ قبله ولن ينتهي اليوم، يستحيل حشرها في هذه المساحة: من عائلته إلى مدينته وأصدقائه وثورات عصره السياسية والاجتماعية والفكرية والفنية والموسيقية (حتى في الشق الميكانيكي، مثل تطوير البيانو واختراع المترونوم) وعمله وصحته ويومياته التي ترك فيها معاصروه كتابات كثيرة، وصولاً إلى اكتئابه ومشروع إنهاء حياته بعد فقدانه السمع وغرقه في ظلمات الصمت، وهو ربّ مَن أضاء الوجود بجمال الصوت. ثم من تركته الموسيقية الضخمة وانتشار مؤلفاته في العالم، وصولاً إلى بدء عصر التسجيل وولادة لعبة الأداء لأعماله منذ مطلع القرن الماضي، بالإضافة إلى أثره في السينما والأدب وتأثيره في الموسيقى، وغير ذلك... ماذا نهمل؟ ماذا نختار؟ ارتأينا أن نركّز اليوم على بيتهوفن من زاوية «مهرجان البستان»، على أن نعود إليه على مراحل، كل مرة من زاوية نعتقد أنها مهمّة، خلال هذه السنة. سنتناول في ما يلي بيتهوفن بشكل عام، من دون التركيز على جانب محدّد. ثم نتناول «مهرجان البستان»، في مقالةٍ أخرى (راجع الصفحة المقابلة)، بالإضافة إلى لمحة عن أهم محطاتها، وأخرى عن الموسيقيين (من حضر ومن غاب).

عندما كنّا في الصفوف الابتدائية في المدرسة، كان هناك نصٌّ في كتاب القراءة عن الموسيقى. ما زلنا نذكر ورود ثلاثة أسماء فيه: باخ، موزار وبيتهوفن. رغم غياب أي علاقة لنا بالموسيقى الكلاسيكية آنذاك، لا من خلال العائلة ولا عبر المحيط القريب والمجتمع، لم نشعر أنها أسماء غريبة. مع مرور السنوات والغوص في هذا العالم الشاسع، فهمنا لماذا ذُكِرَت هذه الأسماء دون سواها، قبل أن نتأكّد بأنفسنا، أن هذا الثلاثي هو فعلاً، لا صفةً، ثالوث مقدّس، يترنّح على عرش الموسيقى، لا الغربية فقط ولا الكلاسيكية فحسب. إنهم عمالقة من عالم آخر، رغم وجود سواهم من الأدمغة الموسيقية في الغرب والشرق، في الكلاسيك كما في جميع الأنماط، شعبية كانت أم نخبوية. صحيح أن 2020 هو عام بيتهوفن، لكنه، على مدى سنوات، وبحسب الإحصاءات السنوية لآلاف العروض الحية على مستوى الكرة الأرضية، يتقاسم مع مواطنَيه الجرمانيَّيْن، المراتب الثلاث الأول من حيث ورود أعماله في برامج الحفلات.

إنه لودفيغ فان بيتهوفن المولود في مدينة بون الألمانية عام 1770 في كنف عائلة متوسطة الحال. والده كان مغنياً ومدرّس موسيقى، وأراد أن يجعل من ابنه، الموهوب جداً، «موزاراً» ثانياً. تلقى دروسه الموسيقية مع عدة أساتذة، لكنه لم يكن الطفل المعجزة الذي كانه موزار (يكبره بـ14 سنة). في سن الـ17، سافر إلى فيينا، عاصمة الموسيقى في أوروبا آنذاك والتقى موزار وعزف أمامه للمرة الأولى... والأخيرة. فموزار رحل عن 39 عاماً بعد نحو أربع سنوات على هذه اللقاء الذي همس خلاله للحضور هذه الكلمات: «انتبهوا لهذا الفتى، سيتكلّم عنه العالم بأسره». بعد رحيل والدته، المرأة القديرة والهادئة التي كان يعشقها، عاد إلى فيينا الفارقة في حدادها على موزار، لكن هذه المرّة ليتلمذ، لمدة سنة، على يد المؤلف العتيق هايدن.

بيتهوفن كان قد بدأ بالتأليف حتى قبل لقائه بموزار، لكن مسيرته لم تنطلق بشكل جدّي إلا عند بلوغه الـ25 من عمره تقريباً، عندما نشر أول أعماله (ثلاثة أعمال من فئة التريو وثلاث سوناتات للبيانو). وكلمة «نشر العمل» إلى جانب التعليم هي مصدر العيش بالنسبة إلى بيتهوفن، الذي كان أول مؤلف يخرج عن قاعدة «الموظّف» عند السلطات الدينية أو الأرستقراطيين. في تلك الفترة أيضاً، بدأ يشعر بأن أذنيه ليستا على ما يرام، ليفقد سمعه تدريجاً مع مرور السنين، حتى بلغ الصمم التام قبل عشر سنوات تقريباً من رحيله عام 1827. رغم ذلك، أمسك القدر من رأسه وركّعه.

بعد التخلّي عن فكرة الانتحار (المبرّر في هذه الحالة!) التي راودته ووضعها قيد التنفيذ قبل ذلك بكثير (كتب وصيته المعروفة باسم «وصية هايليغنشتات» عام 1802)، تابع التأليف، بل كتب أعظم أعماله، من بينها السمفونية التاسعة المصنّفة اهم إنجاز موسيقي (وربما فنّي) في تاريخ البشرية. اليوم، بعد نحو قرنين على رحيله، ربما لا تمرّ ثانية على الكرة الأرضية إلّا وهناك بشرٌ يصفّقون لبيتهوفن، كأنهم بذلك ينفّذون بشكل متواصل وصيّته على فراش الموت، عندما تمتم قبل أن يغمض عينيه إلى الأبد: «صفّقوا يا أصدقائي... انتهت المسرحية».

برادلي تيودور ــ «سمفونية بيتهوفن» (طباعة بالشاشة الحريرية ــ 40 × 30 سنتم ــ 2018)